

دخائر العرب

١٦

ثلاث رسائل

فدا إعجاز القرآن

للرّماني والخطّابي وعبد الفاهر الجرجاني

في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي

حقّقها وعلّق عليها

دكتور محمد زغلول سلام

كلية الآداب بجامعة القاهرة
(فرع الخرطوم)

محمد خلف الله أحمد

عميد معهد الدراسات العربية



دار المعارف بمصر

دخائر العرب

ثلاث رسائل فدا إعجاز القرآن

دار المعارف بمصر

١١٧
ر ع

ثلاث رسائل
في إعجاز القرآن

ثلاث رسائل

فلك إعجاز القرآن

للرّماني والخطّابي وعبد الفاهر الجرجاني

في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي

حقّقها وعلّق عليها

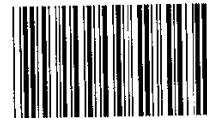
دكتور محمد زغلول سلام

أستاذ اللغة العربية وآدابها
بجامعة الإسكندرية

محمد خلف الله

عميد معهد الدراسات العربية
سابقاً

الطبعة الثالثة



19904



دار المحارّف بمطر

ولم يركبوا تلك الفواقير المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذولب . وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ، ووفارة العقول والألباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون . وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدن فقال سبحانه : ﴿... ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾^(١) وقال سبحانه : ﴿تُنذِرَ بِهِ قوماً لُداً﴾^(٢) . فكيف كان يجوز - على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأن يضربوا عنه صفحاً ، ولا يحوزوا الفلح والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه . ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك على نفسه وبمحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً [لحكمنا^(٣)] أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه . وهذا بين واضح لا يشكك على عاقل .

قلت : وهذا - من وجوه ما قيل فيه - أبينها دلالة وأيسرها مؤونة . وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه .

وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة^(٤) ، أي صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير معجزة عنها ؛ إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجارى العادات صار كسائر المعجزات . فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك

(١) سنجرى في خلال هذا الكتاب على ذكر اسم السورة متبوعاً برقمها ثم رقم الآية (الزخرف ٥٨/٤٢) . وتام الآية : (وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون) .
(٢) [مريم ٩٧ / ١٩] .
(٣) أضفنا هنا كلمة (لحكمنا) ليم الكلام .
(٤) في « ب » : وذهب قوم إلى الإعجاز فيه الصرفة .

يده أو مدرجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال آتني أن أحرّك يدي أو أمد رجلي ، ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلى ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدرُوا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه . وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبي ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجارى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها ، وهذا أيضاً وجه قريب ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) ، فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد . والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها ، والله أعلم .

وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَغْلِبْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ (٢) ، وكقوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ (٣) ، ونحوهما من الأخبار التى صدقت أقوالها مواقع أكوانها . قلت : ولا يشك فى أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه فى صفة كل

(١) [الإسراء ٨٨ / ١٧] .

(٢) [الروم ٣٠ / ١ - ٣] . وفى « ب » إلى قوله تعالى « الأرض » الآية .

(٣) [الفتح ٤٨ / ١٦] .

سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ، فقال : ﴿ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) من غير تعيين ^(٢) ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه . وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة ^(٣) ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفي كیفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه .

قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا ياتبس على ذوى العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معاً فصيحان ، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم ، ولا يشفي من داء الجهل به ،

(١) [البقرة - ٢٣/٢] .

(٢) في « ب » : عبارة « من غير تعيين » ناقصة .

(٣) لخص السيوطي هذا الرأي في كتاب الإتيان ط حجازي سنة ١٣٦٠ هـ / ٢٠٤٠ م .

وإنما هو إشكال أحيل به على إيهام ، وقد تمثل بعضهم في هذا بأبيات جرير التي نحلها ذا الرمة^(١) : ذكرت الرواة أن جريراً مرّ بذي الرمة وقد عمل قصيدته التي أولها :

نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى عَفْتَهُ الرِّيحُ وَامْتَنَحَ الْقِطَارَا

فقال : ألا أنجلك بأبيات تزيد فيها ! فقال : نعم . فقال :

يَعُدُّ النَّاسِبُونَ بَنِي تَمِيمٍ بِيُوتَ الْمَجْدِ أَرْبَعَةً كِبَارَا

يَعْدُونَ الرَّبَابَ وَآلَ تَيْمٍ وَسَعْدًا ثُمَّ حَنْظَلَةَ الْخِيَارَا

ويذهب بينها المرثى لغواً كما ألغيت في الدية الحوارا

فوضعها ذو الرمة في قصيدته ثم مرّ به الفرزدق فسأله عما أحدث من الشعر ، فأنشده القصيدة ، فلما بلغ هذه الأبيات قال : ليس هذا من بحرك ، مضيفها^(٢) أشدّ لحيين منك ! قال : فاستدركها بطبعه ، وفطن لها بلطف ذهنه .

قلت : فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلة ، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه يقول إن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حس السامع ، والهشاشة في نفسه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب ، والتأثير في النفوس ، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتخصّر الأقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع عنها ، أمر لا بد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا

(١) راجع القصة في الأغاني ط الساسي ١٦ / ١١٣ .

(٢) في « ب » : مصنها .

الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف . وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه ، وأسبابه النابتة منه ، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر ، أو يستقيم في القياس ، ويطرد على المعايير ^(١) ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته ، ومستقصى من جهة نفسه : فدل النظر وشاهد العبر على أن السبب له ، والعلّة فيه ^(٢) أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيين متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة ^(٣) غير متساوية ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ؛ ومنها الجائر الطلق الرسل . وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم ، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه ألبتة .

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ؛ فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة ، وهما على الانفراد في نوعيهما كالمضادين لأنّ العدوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطف قدرته من أمره ^(٤) ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة له على صحة مادعا إليه من أمرا دينه .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمر : منها أن علمهم لا يحيط .

(١) في « ب » : ويطرد على معاني العبر .

(٢) لخص السيوطي هذا الرأي في الإتيان ٢ / ٢٠٤ . ولخصه صاحب مفتاح السعادة ٢ / ٣٥٩ .

(٣) في « ب » لفظة « متباينة » غير موجودة .

(٤) في « ب » : لسترها بلطف قدرته عن الزلة .

بجميع أسماء اللغة العربية [وبألفاظها ^(١)] التي هي ظروف المعاني والخوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اثتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن ^(٢) من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه . وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها . والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير ، الذي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ . في أحسن نظم التأليف مضمناً أصبح المعاني ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ؛ من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ ^(٣) وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى ^(٤) في صورة العقل أمر أليق ^(٥)

(١) في الأصل أوضاعها ويبدو أنها تصحيف لكلمة ألفاظها التي أثبتناها والتي تتفق مع السياق .

(٢) في « ب » الأخس .

(٣) في الأصل واو قبل كلمة (وعظ) ويظهر أن هذا حمل ناشر « ا » أن يقرأ العبارة :

ومن وعظ . ونحن نرجح القراءة المثبتة لتمشيتها مع السياق .

(٤) في « ب » : ولا يتوهم .

(٥) في « ب » : أليق به منه .

منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ، ونهى عنه .

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتنسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله . ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكره يقولون مرة إنه شعر لما رآوه كلاماً منظوماً ، ومرة سحر إذ رآوه معجوزاً عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس يُريبهم ويحيرهم ، فلم يتألكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف . ولذلك قال قائلهم : إن له حلاوة وإن عليه طلاوة . وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون : ﴿ أساطير الأولين اكتبها فهي تملئ عليه بُكرةً وأصيلاً ﴾^(١) مع علمهم أن صاحبه أُمِّيٌّ وليس بحضرته من يملئ أو يكتب ، في نحو ذلك من الأمور التي جماعها الجهل والعجز ، وقد حكى الله جل وعز عن بعض مرتدّهم وشياطينهم - ويقال هو الوليد بن المغيرة المخزومي - أنه لما طال فكره في أمر القرآن ، وكثر ضجره منه ، وضرب له الأحماس من رأيه في الأسداس ، لم يقدر على أكثر من قوله : ﴿ إن هذا إلا قولُ البشر ﴾^(٢) عناداً للحق وجهلاً به ، وذهاباً عن الحجة وانقطاعاً دونها ، وقد وصف^(٣) ذلك من حاله وشدة حيرته فقال سبحانه : ﴿ إنه فكرٌ وقدرٌ ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر . ثم نظر ثم عبّس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثر . إن هذا إلا قولُ البشر ﴾^(٤) .

(٢) [المدثر ٧٤/٢٢] .

(٤) [المدثر ٧٤/١٤ - ٢٢] .

(١) [الفرقان ٢٥/٥] .

(٣) في « ب » زيادة [الله تعالى] .

وكيفما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولاً ،
وانقطاعهم عن معارضته فعلاً أنه معجز ، وفي ذلك قيام الحجة وثبوت
المعجزة ، والحمد لله^(١) .

ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع^(٢) لها هذه الصفات هو وضع
كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل
به ، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه
فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في
الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني^(٣) يحسب أكثر الناس أنها متساوية في
إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ،
وكانت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبكى ونعم ، وذلك وذاك ،
ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات مما سنذكر
تفصيله فيما بعد ، والأمرفيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ،
لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبته في بعض معانيها وإن
كانا قد يشتركان في بعضها . تقول : عرفت الشيء وعلمته إذا أردت
الإثبات الذي يرتفع معه الجهل ؛ إلا أن قولك : عرفت . يقتضي مفعولاً واحداً
كقولك : عرفت زيدا ، وعلمت يقتضي مفعولين ، كقولك : علمت زيدا عاقلاً
ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً في توحيد الله تعالى وإثبات ذاته ،
فتقول : عرفت الله ، ولا تقول علمت الله ، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات
فتقول : علمت الله عدلاً ، وعلمته قادراً ، ونحو ذلك من الصفات . وحقيقة

(١) يرد هذا الجزء ملخصاً في الإتيان ٢/٢٠٥ ، وفي مفتاح السعادة ٢/ ٣٦٠ .

(٢) في (ب) تجتمع .

(٣) لعل النظر إلى بلاغة القرآن من هذه الوجهة هو الذي دفع بعض العلماء مثل أبي هلال العسكري
إلى العناية بالفروق اللغوية .

البيان في هذا أن العلم ضده الجهل ، والمعرفة ضدها النكرة . والحمد والشكر قد يشتركان أيضاً ، والحمد لله على نعمة أى الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر عن الحمد في أشياء ؛ فيكون الحمد ابتداءً بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء ، تقول : حمدت زيداً^(١) إذا أثنت عليه في أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف ، وشكرت زيداً إذا أردت جزاءه على معروف أسداه^(٢) إليك ، ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ، ويكون فعلاً كقوله جل وعز : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾^(٣) . وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب .

وأما الشح والبخل فقد زعم بعضهم أن البخل منع الحق ، وهو ظلم ، والشح ما يجده الشحيح في نفسه من الحزارة عند أداء الحق وإخراجه من يده . قال : ولذلك قيل : « الشحيح أعذر من الظالم » . قلت : وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روى عن ابن مسعود : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن مالك قال : نا عمر بن حفص السدوسي قال : نا المسعودي عن جامع بن شداد عن أبي الشعثاء قال : قلت لعبد الله بن مسعود ، يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : ولم ذاك ؟ . قلت : لأنني سمعت الله يقول : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٤) ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء . قال : ليس ذاك الشح الذي ذكره الله في

(١) هكذا في « ب » وفي « أ » والطبعة الأولى « هذا » .

(٢) هكذا في « ب » وفي « أ » والطبعة الأولى « ابتداء » .

(٣) [سبا ٣٤ / ١٣] . (٤) [الحشر ٩ / ٥٩] .

القرآن ، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذاك البخل ، وبئس الشيء البخل .

وأما النعت والصفة ، فإن الصفة أعم والنعت أخص ، وذلك أنك تقول : زيد عاقل وحليم ، وعمرو جاهل وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أسود ودميم ، و [عمرو] ^(١) أبيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتاً لهما وأما النعت فلا يكاد يطلق إلا فيما لا يزول ولا يتبدل ، كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما من الأمور اللازمة .

وأما قول القائل لصاحبه : اقعد واجلس ، فقد حكى لنا عن النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلم ؛ فقال له المأمون : اجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف تقول ؟ قال : قل اقعد . فأمر له بجائزة .

قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول : القيام والقعود كما تقول : الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون القيام والجلوس وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام ، وجلس عن ضجعة واستلقاء ، ونحو ذلك .

وأما قولك : بلى ونعم ؛ فإن بلى جواب عن الاستفهام بحرف النفي كقول القائل : ألم تفعل كذا ؟ ، فيقول صاحبه : بلى ، كقوله عز وجل : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ ^(٢) . وأما نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل ^(٣) كقوله سبحانه ^(٤) : ﴿ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ ^(٥) .

(١) وردت العبارة في الأصل بغير (عمرو) وقد زدناها ليستقيم الكلام .

(٢) [الأعراف ١٧٢/٧] .

(٣) في الأصل : نحو فهل وقد سقطت هاتان الكلمتان من طبعة (ص) .

(٤) في طبعة (ص) : كقوله تعالى . (٥) [الأعراف ٤٤/٥] .

وقال الفرّاء : بلى لا يكون إلا جواباً عن مسألة يدخلها طرف من الجحد . وحكى عنه أنه قال : لو قالت الذرية عندما قيل لهم أأست بربكم ، نعم ، بدل قولهم بلى لكفروا كلهم .

وأما قولك : ذاك وذلك^(١) فإن الإشارة بذلك إنما تقع إلى الشيء القريب منك ، وذاك إنما يستعمل فيما كان متراحياً عنك .

وأما من وعن فإنهما يفترقان في مواضع^(٢) كقولك : أخذت منه مالا ، وأخذت عنه علماً ، فإذا قلت : سمعت منه كلاماً أردت سماعه من فيه ، وإذا قلت : سمعت عنه حديثاً كان ذلك عن بلاغ ، وهذا على ظاهر الكلام وغالبه . وقد يتعارفان^(٣) في مواضع من الكلام . ومما يدخل في هذا الباب ما حدثني محمد بن سعدويه قال : حدثني محمد بن عبد الله بن الجنيد قال : حدثني محمد بن النضر بن مساور قال : حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : جمعنا الحسن لعرض المصاحف أنا وأبا العالية الرياحي ونصر بن عاصم الليثي وعاصم الجحدري ؛ فقال رجل يا أبا العالية قول الله تعالى في كتابه : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾^(٤) ما هذا السهو ؟ ، قال الذي لا يدرى عن كم ينصرف ؛ عن شفع أو عن وتر ، فقال الحسن : مه يا أبا العالية ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم . قال الحسن : ألا ترى قوله عز وجل : (عن صلاتهم) ، وناه أبورجاء الغنوي ، نا محمد بن الجهم السجزي ، نا الهيثم بن خالد المنقري

(١) كذا في « ب » وفي « أ » والطبعة الأولى ذاك .

(٢) في « ب » زيادة (كثيرة) . (٣) لعلها يتقاربان وفي « ب » يتعاقبان .

(٤) [الماعون ١٠٧ / ٥] .

عن أبي عكرمة عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار نحوه . قلت : وإنما أتى أبو العالية في هذا حيث لم يفرق بين حرف عَن وفي ، فتنبيه له الحسن فقال : ألا ترى قوله : ﴿ عن صلاتهم ﴾ يؤيد أن السهو الذي هو الغلط في العدد إنما هو ^(١) يعرض في الصلاة بعد ملابستها ، فلو كان هو المراد لقليل : في صلاتهم ساهون ، فلما قال عن صلاتهم دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت . ونظير هذا ما قاله القُتَيْبِيُّ ^(٢) في قوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكرِ الرحمنِ نُقيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ^(٣) زعم أنه من قوله : عشوت إلى النار أعشو إذا نظرت إليها . فغلطوه في ذلك وقالوا : إنما معنى قوله : من يُعرض عن ذكر الرحمن ، ولم يفرق بين عشوت إلى الشيء وعشوت عنه - وهذا الباب عظيم الخطر ، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط . ، وقديماً عني به العربي الصريح - فلم يحسن ^(٤) ترتيبه وتنزيله .

حدثني عبد العزيز بن محمد المسكني قال : حدثني إسحاق بن إبراهيم قال حدثني سويد نا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرحمن قال : حدثني طلحة الياحي قال : حدثني عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علّمني عملاً يدخلني الجنة فقال : ااعتق النسمة وفك الرقبة قال : أوليسا واحداً ؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها . فتأمل كيف رتب الكلامين

(١) سقطت (هو) في (ص) .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ أو سنة ٢٧٠ هـ ، وقد ذكر صديق في هامش له (١) ٣٩ أن الوفاة كانت سنة سبع ومائتين وهو مغاير لما تذكره المصادر في ترجمته .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ٣٦] . (٤) يقصد القُتَيْبِيُّ .

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

واقترضى من كل واحد منهما أخص البيانين^(١) فيما وضع له من المعنى وضمنه من المراد . وحدثني عبد الله بن أسباط عن شيوخه قال جمع هارون الرشيد سيبويه والكسائي فالتقى سيبويه على الكسائي مسألة فقال : هل يجوز قول القائل : كاد الزنبور يكون العقرب فكأنه إياها أو كأنها إياه ؟ فجوزه الكسائي على معنى كأنه هي أو كأنها هو ، وأباه سيبويه ، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب وسألهم عنها بحضرتيها فصوبوا قول سيبويه ولم يجوزوا ما قاله الكسائي ، قيل وذلك أن حرف (إيا) إنما يستعمل في موضع النصب ، وهي هنا في موضع رفع فلم يجوز . ومثل هذا كثير واستقصاؤه يطول .

قلت : ومن ها هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن ، وتركوا القول فيه حذراً أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا علماء باللسان ، فقهاء في الدين ؛ فكان الأصمعي - وهو إمام أهل اللغة - لا يفسر شيئاً من غريب القرآن . وحكى عنه أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾^(٢) فسكت وقال : هذا في القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهي لكم شغاف ؟ . ولم يزد على ذلك ، أو نحو هذا الكلام .

قلت : ولهذا ما حث صلى الله عليه وسلم على تعلم إعراب القرآن وطلب معاني الغريب منه . نا إسماعيل بن محمد الصفار قال : حدثني محمد بن وهب الثقفي^(٣) ، قال حدثني محمد بن سهل العسكري قال حدثني ابن أبي زائدة عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبها » .

(٢) [يوسف ١٢ / ٣٠] .

(١) في « ب » (الشانين) .

(٣) سقطت الثقفي في (١) .

قلت : فإذا عرفت هذه الأصول تبينت أن القوم إنما كاعوا^(١) وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعدهم منه ، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم ، فكان حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا منه ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ والحمد لله رب العالمين .

فإن قيل : إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه وجدنا معظم كلامه مبنيًا ومؤلفًا من ألفاظ مبتدلة^(٢) في مخاطبات العرب مستعملة في محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مبادله ومراسيله عدد يسير ، فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف في أودية الكلام ، عارفون بنظومه . قصيده ورجزه وسجعه ، وسائر فنونه ، فلو كانوا أرادوه وقنعوا عن شفاء الأنفس به لسهل ذلك عليهم ، وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى في نفوسهم وأجدى عليهم في مبلغ آرائهم وعقولهم . وهو مناجزتهم إياه الحرب ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه . وكرهه لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذي يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين ، فمالوا إلى هذا الرأي قصدًا إلى اجتياحه واستئصاله ، إذ كانوا فيما يرونه مستظهرين عليه مستعلين بالقدره فوقه .

قيل : إنا قدمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السؤال . وزعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من

(١) كاع عن الشيء هابه وجبن عنه .

(٢) في الأصل مبتدلة وصحها « ا » مبتدلة .

البشر ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان ، وذكرنا العلة في ذلك ، وبيننا المعنى فيه ، ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه ، وملابسه التي هي نظوم تأليفه .

وقد قال بعض العلماء ^(١) في الأسماء اللغوية وهي نوع واحد من الأنواع الثلاثة التي شرطنا أنه لا يجوز أن يحيط بها كلها إلا نبي ؛ وقد كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه - وهو من الفصاحة في ذروة السنام والغارب - يقرأ قوله عز وجل : ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ ^(٢) فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأب ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك يا ابن الخطاب . وكان ابن عباس رحمه الله - وهو ترجمان القرآن ووارث علمه - يقول : لا أعرف حناذاً ولا غسيلين ولا الرقيم . هل في اللغة التفث في شيء من كلام العرب ؟ ، وإنما أخذوه عن أهل التفسير على ما عقلوه من مراد الخطاب .

فأما المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشد لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ . وزمام المعاني وبه تنتظم ^(٣) أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان .

(١) يذكر (١) أنه الإمام الشافعي ، وينقل قوله في أوائل الرسالة : لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولانعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها .

(٢) (عبس ٨٠ / ٣١) .

(٣) الرسم هنا غير واضح في الأصل ، وقد قرأه (١) : وبه يتصل أخذ الكلام .

وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفرد^(١) بذرب اللسان وطلاقة كافيًا لهذا الشأن ، ولا كل من أوتي حظًا من بديهة وعارضة كان ناهضًا بحمله ومضطلعًا بعبئه ما لم يجمع إليها سائر الشرائط. التي ذكرناها على الوجه الذي حددناه ، وأنى لهم ذلك ومن لهم به ؟ ولئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا^(٢) .

وأما ما ذكره من قلة الغريب في ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه في حدود البلاغة ، وإنما يكثروا وحشى الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخيره ، وليس ذلك معدودًا في النوع الأفضل من أنواعه . وإنما المختار منه النمط. الأقصد الذي جاء به القرآن ، وهو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة . وقد يعد من ألفاظ الغريب في نعوت الطويل نحو من ستين لفظة أكثرها بشع شنع . كالعشيق^(٣) ، والعشنت^(٤) ، والعطنط . والشوقب والشوذب والسلهب^(٥) ، والقوق ، والقاق ، والطوط . والطاقط . فاصطلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها في مرسل الكلام ، واستثقلوا الطويل . وهذا يدل على أن البلاغة لا تعبًا بالغرابة ولا تعمل بها شيئًا .

فإن قيل : إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة في

(١) في « ب » : التفرد .

(٢) [الإسراء ١٧ / ٨٨] .

(٣) العشيق والعشائق (كعسل وعلايط) الطويل ليس بضخم ولا مثقل .

(٤) العشنت (كعشيق) التار الظريف الحسن الجسم ، وقد وردت هذه الكلمة في (١) محرفة إلى عشنت في صلب الكتاب وهامشه .

(٥) في الأصل السهلب ولم ترد في كتب اللغة .

القرآن إنما وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله : ﴿ فَأَكَلَهُ الذُّبُّ ﴾ (١) وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً «الافتراس» ، يقال : افترسه السَّبُعُ . هذا هو المختار الفصيح في معناه ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع . وكقوله : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (٢) قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال ، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : كِلْتُ لزيد كيلاً يسيراً إلا أن يعنى به أنه يسير العدد والكمية . وكقوله : ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ (٣) ، والمشي في هذا ليس بآبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان آبلغ وأحسن . وكقوله : ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ (٤) وإنما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فأما الأمور التي هي معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها . ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبلاً غير مستحسن . وكقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (٥) وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام وصحته أن يقال : أنا شديد الحب لزيد ، وللمال ، ونحوه . وكقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ (٦) ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، إنما يقال : زكى الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من الكلام ، وكقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٧) ، ومن الذى يقول :

(٢) [يوسف ١٢/٦٥] .

(٤) [الحاقة ٢٩/٦٩] .

(٦) [المؤمنون ٤/٢٣] .

(١) [يوسف ١٢/١٧] .

(٣) [ص ٦/٣٨] .

(٥) [العاديات ٨/١٠٠] .

(٧) [مريم ١٩/٩٦] .

جعلت لفلان وداً وحباً بمعنى أحببته ؟ ، وإنما يقول وددته وأحببته ، أو بذلت له ودى ؛ أو نحو ذلك من القول . وكقوله سبحانه : ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾^(١) ، وإنما هو ردفه يردفه من غير إدغام اللام . وكقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾^(٢) . وكقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾^(٣) فأدخل الباء في قوله بإلحاد وفي قوله بقادر ، وهى لاموضع لها ها هنا^(٤) . ولو قيل : ومن يرد فيه إلحاداً بظلم ، وقيل : قادر على أن يحيى الموتى ، كان كلاماً صحيحاً لا يشكك معناه ولا يشبهه . ولو جاز إدخال الباء في قوله : بقادر لجاز أن يقال : ظننت أن زيداً بخارج ، وهذا غير جائز البتة . قالوا : ومما يعرض فيه من سوء التأليف ومن نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به قوله سبحانه : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾^(٥) عقيب قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا . لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾^(٦) وكما (في) تشبيهه شيء بشيء ولم يتقدم من^(٧) أول الكلام ما يشبه به ما تأخر منه . وكقوله سبحانه : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾^(٨) ، وقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾^(٩) ... الآية .

قالوا : وقد يوجد في القرآن الحذف الكثير والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام ومعناه كقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ

(٢) [الحج ٢٢/٢٥] .
 (٤) نقلها (ص) هنا .
 (٦) [الأنفال ٨/٤] .
 (٨) [الحجر ٨٩/١٥ - ٩١] .

(١) [النمل ٢٧/٧٢] .
 (٣) [الأحقاف ٤٦/٣٣] .
 (٥) [الأنفال ٨/٥] .
 (٧) نقلها (ص) في .
 (٩) [البقرة ٢/١٥١] .

قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴿١﴾ الآية ثم لم يذكر جوابه ، وفي ذلك تبتيير (٢) الكلام وإبطال فائدته . وكقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (٣) الآية ونظائرها . . ثم قد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف كقوله سبحانه في سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفي سورة المرسلات : ﴿ وَيَلُومُنَّكُمُ الْمَكْذِبِينَ ﴾ ، وليس واحد من المذهبيين بالمحمود عند أهل اللسان ، ولا بالمعدود في النوع الأفضل من طبقات البيان . وقد يدخل بين الكلامين ما ليس من جنسهما ولا قبيلهما كقوله سبحانه : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٤) عقيب قوله ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ بين يدي قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ وليس (٥) ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأرباب البيان ، والأحسن أن يكون الكلام مفصلاً مقسوماً على أبوابه ، وأن يكون لكل نوع منه حيز وقبيل لا يدخل في قبيل غيره .

قالوا : ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب فتكون أخبار الأمم وأقاصيصهم في سورة ، والمواعظ والأمثال في سورة ، والاحكام في أخرى لكان ذلك أحسن في الترتيب ، وأعون على الحفظ . وأدل على المراد ؛ في أمور غير هذه يكثّر تعدادها .

والجواب : أن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي ،

(١) [الرعد ٣١/١٣] .

(٢) هكذا في « ب » وفي « ا » والطبعة الأولى تبين ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) [الزمر ٣٩/٧٣] . (٤) [القيامة ١٩/٧٥] .

(٥) هكذا في « ب » وفي الأصل ولا .

وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند ، وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تأولوه ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه .

فأما قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ ﴾ فإن الافتراض معناه في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يُعَبَّرَ عنه إلا بالأكل ؛ على أن لفظ الأكل شائع^(١) الاستعمال في الذئب وغيره من السباع . وحكى ابن السكيت في ألفاظ العرب قولهم : « أكل الذئب الشاة فما ترك منها تاموراً^(٢) » ، وقال بعض شعرائهم^(٣) :

فَتَى لَيْسَ لَابْنِ الْعَمِّ كَالذَّنْبِ إِنْ رَأَى بِصَاحِبِهِ يَوْمًا دَمًا فَهُوَ آكِلُهُ
وقال آخر^(٤) :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا أَنْتَ ذَا نَفَرٍ فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضَّبْعُ

وفي حديث عتبة بن أبي لهب أنه لما دعا عليه السلام فقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فخرج في تَجَرُّ إلى الشام ، فنزل في بعض المنازل ،

(١) في « ب » سائغ .

(٢) التامور : الوعاء والنفس وحياتها ، والقلب وحبته وحياته ودمه ، أو الدم . . . إلخ .

(٣) ينسب البيت للفرزدق ، وفي بعض المراجع لزينب بنت الطرية . راجع : اللسان ١٣ / ٢٠٤

التنبيه ٣٦ ، الأغاني ٧ / ١٢٣ ، حماسه البحتری ٣٩٦ ، ويروى للفرزدق بيت قريب في نفس المعنى (راجع الحيوان ٦ / ٢٩٨ ، المعاني الكبير ١ / ٢٨٥ . ويقول الجاحظ : (الحيوان ط ، هارون ٧ / ٦٣) : « الذئب لا يطعم فيه صاحبه فإذا دمي وثب عليه صاحبه فأكله » .

(٤) والبيت للعباس بن مرداس ، وأبو خراشة هو خفاف بن ندبة ، ورواية الحيوان : (أما كنت ط هارون ٥ / ٢٤ ، وراجع شرح المفصل ط لبيزج ٢ / ١١٨٤ والشعر والشعراء ط شاكر ١ / ٣٠٠ .

جاء الأسد وأطاف بهم فجعل عتبة يقول : أَكَلْنِي السبع ، فلما كان في بعض الليل علا^(١) عليه ففدغ رأسه . وقد يتوسع في ذلك حتى يجعل العقر أكلاً وكذلك اللدغ واللسع . أخبرنا أبو عمر قال : أخبرنا أبو العباس عن ابن الأعرابي عن أبي المكارم قال : مررت بمنهال وعلى شفيره صنبور بيده شوشب فقلت لأمه : أدركي القامة لا تأكله الهامة . قال أبو العباس : الشوشب ، العقرب والقامة الصبي الصغير . وحكى أيضاً عن بعض الأعراب أكلوني البراغيث ؛ فجعل قرص البرغوث أكلاً . ومثل هذا في الكلام كثير^(٢) .

وأما قوله سبحانه : ﴿ وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ^(٣) فَإِنْ معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل ، والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم : هذا درهم ضرب الأمير وهذا ثوبٌ نسج اليمن ، أى مضروب الأمير ونسج اليمن ، والمعنى أنا نزداد من الميرة المكيمة إذا صحبنا أخونا حمل بعير^(٤) ؛ فإنه كان لكل رأس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام ، فكان ذلك في السنين السبع القحطة ، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ولا يتيسر لهم مرامه إلا من قبله فقليل على هذا المعنى : ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أى متيسر لنا إذا تسببنا إلى ذلك باستصحاب أخينا ، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور كالعسير فيما يتعذر منها ، ولذلك قيل يُسَّرَ الرجل إذا نُتِجَتْ مواشيه وكثر أولادها . قال الشاعر :

يَعُدُّ الْفَتَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ غَنَاها مِنْ صَدِيقٍ مُيسِرٍ^(٥)

(١) في « ا » عدا .

(٢) في « ا » : ومثل هذا الكلام كثير . والأصل ما أثبتناه .

(٣) (يوسف ١٢ / ٦٥) .

(٤) في الأصل : حمل به بعير ، والظاهر أن (به) زائدة ، وقد حذفت في (ا) .

(٥) يسر الرجل تيسيراً إذا سهلت ولادة أبله وغنمه ، والغنم لبنها أو نساها .

وقال آخر^(١) :

هما سَيِّدَانَا يَزْعَمَانِ وَإِنَّا يَسُودَانَا أَنْ يَسْرَتْ غَنَمَاهُمَا

وقد قيل في ذلك : كيل يسير أى سريع لا حبس فيه ، وذلك أن القوم كانوا يُحبسون على الباب ، وكان يوسف يقدمهم على غيرهم ؛ وقد قيل إن معنى الكيل هنا السعر . أخبرني أبو عمر عن أبي العباس قال : والكيل بمعنى السعر ، كيف الكيل عندكم ؟ أى : كيف السعر ؟ وقد أنشدنا عمرو ابن أبي عمرو الشيباني عن أبيه^(٢) :

فَإِنْ تَكُ فِي كَيْلِ الْيَمَامَةِ عَسْرَةً فَمَا كَيْلُ مَيَّافَارِقِينَ^(٣) بِأَعْسَرَا

وأما قوله سبحانه : ﴿ أَنْ أَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾^(٤) وقول من زعم أنه لو قيل بدله : امضوا وانطلقوا كان أبلغ ، فليس الأمر على ما زعمه ، بل المشى في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة في غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله : ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ والمعنى كأنهم قالوا : امشوا على هينتكم وإلى مهوى^(٥) أمورك ، ولا تعرجوا على قوله ، ولا تبالوا به . وفي قوله : امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس في قوله امشوا ، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه ، وقيل : بل المشى هاهنا معناه التوفر في العدد والاجتماع للنصرة دون المشى الذي هو نقل

(١) هو أبو أسيدة الدبيري كما في اللسان ط بلاق ٧ / ١٥٩ ، وينشد قبله بيتاً آخر :

إِنْ لَنَا شَيْخَيْنِ لَا يَنْفَعَانَا غَنِينِ لَا يَجِدِي عَلَيْنَا غَنَاهُمَا

(٢) البيت يرويه ياقوت في معجم البلدان ٨ / ٢١٤ وينسبه إلى بعض الشعراء .

(٣) ميافارقين مدينة بديار بكر . (٤) (ص ٣٨ / ٦) .

(٥) في « ب » : « والزموا » .